

عبد الرحمن الكواكبي

بقلم: عبد الرحمن الكواكبي (الحفيد)

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها السيدات والسادة:

دفعني إلى الحديث عن الكواكبي قربي منه نسباً وفكراً، وكشفي عن كثير مما يتعلق به، ورغبتني في تعريف الناس به، فالجميع قرأ عنه في المدرسة، والقليل قرأ عنه في الكتب الثقافية، والنادر من قرأ كتبه.

قابلت مرة صديقاً شبه متقف في الطريق وسألته أين كان؟ قال: كنت في حي الكواكبي أدرس موضوع بيت اشتريته هناك، ثم نظر إليّ متسائلاً وقال: لماذا يسمون هذه المنطقة بالكواكبي؟ هل لكم شيء هناك؟ قلت له: أجل فنحن نملك هناك مدرسة رسمية وحديقة عامة وفندق شهباء الشام.

ومرة تبرع بعض المتقنين المغتربين في أوروبا بإقامة متحف للكواكبي يضم كل ما يتعلق به من مخطوطات وكتابات وكتب. وطلبوا منا السعي لتحضير المدرسة الكواكبية في الجلوم لتكون هي المتحف.

ذهبت وأخي سعد لمراجعة أحد الأصدقاء الرسميين، وهو صاحب العلاقة، عارضين عليه الفكرة، طالبين منه ترميم المدرسة. فقال لنا: إن الدولة لايهمها إقامة مثل هذا المتحف العائلي، ظاناً أن هذا المتحف سيضم وظائفنا المدرسية وصور أولادنا وبدلات الكشافة، فأخبرنا جماعة المغتربين أن من العبث إيقاظ أفكار بعض الناس.

وفي هذا يقول عبد النبي حجازي مدير عام الإذاعة والتلفزيون سابقاً في مقال له عن زيارة قام بها لخلب "... عبد الرحمن الكواكبي العملاق العربي الكبير، فوجئت وأنا أراه منتهياً إلى بناء قديم رث مهمل يتأكل يوماً بعد يوم". ثم ينتهي مقاله بقوله: في لينغراد طلبت أن أزور دوستوفسكي فرأيت بيته متحفاً، فأحسست بالنشوة، وفي بلدي أرى الكواكبي يتحول إلى أطلال. فمن هو الكواكبي؟

عبد الرحمن الكواكبي ولد في ٩/ تموز عام / ١٨٥٥ م وهو ابن أحمد بهائي من كبار فقهاء البلدة وعلمائها، ويرجع في نسبه إلى الشيخ محمد أبي يحيى المشهور بالكواكبي وكان عالماً كبيراً وفتياً.

درس الكواكبي مختلف العلوم واللغتين التركية والفارسية، وظهر عليه النبوغ المبكر في طفولته وشبابه وعاش في كنف أبيه إلى أن أصبح أستاذاً في المدرسة الكواكبية.

وخلال حياته الأولى تولى عدداً من الوظائف، أولها وظيفة محرر عربي ومترجم تركي لجريدة (فرات) الرسمية. وكان عمره ٢١/ سنة، ومنها رئاسة البلدية ورئاسة غرفة التجارة والزراعة والصنائع، وهي آخر وظائفه إذ هاجر بعدها إلى مصر عام / ١٨٩٩ م.

تزوج فاطمة الكحيل، وجاءه تسعة أولاد. كان مغرمًا بزوجته، عطوفاً على أولاده وخاصة البنات. خلال سفره له إلى استانبول أرسل إلى ولده أسعد رسالة يقول له فيها عن والدته، بعد أن سأله عن دراسته ودراسة اخوته... إذا هي نسيتم فنحن لانتسأها، ولا تخرج من فكرنا لا في النهار ولا في الليل... ويقول له في ختام الرسالة "حافظوا على توصياتنا لكم خصوصاً من جهة كسب رضاء ودعاء والدكم ومدارة وملاطفة أخواتكم..".

وفي رسالة أخرى كتب إلى ولديه أسعد ورشيد، وكانا يدرسان الطب في استانبول، أرسلها من شرقي إفريقيا خلال سياحته المشهورة يقول: "رجائي أنكم فزتم في الامتحان وقدمتم سوياً إلى حلب ستياقي إليكم فلا أدري أهو أكثر أم صبري على الزمان أكثر، وأنا الآن أجاهد في معترك الحياة لأجل راحة ورفاهية عائلتي.. ولا حاجة بأن أوصيكم بمواساة الجميع مدة وجودكم. فأنتم الآن رجال لا أولاد، وهذه العائلة هي عائلة كل واحد منكم وما أنا إلا رئيس عليكم ما دمت حياً. وأسعى لأقوم بإعدادكم لملاقاة الزمان وجهاده.

وأول ما أوصيكم به هو تقوى الله الذي قل من يعرفه من الأطباء إلا الموفقين". وفي ذيل الرسالة يقول لهما: "لاحظوا مسألة أحمد ومكتبه، وكذلك نظيرة وفاضل. وأنا أرغب أن يتعلم أحمد اللغة الإنكليزية".

وفي رسالة أخرى أرسلها من حلب إلى ولده أسعد وكان في أول إيفاده لدراسة الطب في استانبول يعلمه فيها كيف يدرس دروسه المقبلة سلفاً ليكسب الأولوية في الامتحانات، وأن الفرصة تسمح له بدراسة الفرنسية والعربي أو أحد الفنون الطبية التي يحب أن يكسب فيها اختصاصاً، وينصحه بالتوسع في إتقان فن الجراحة أو أمراض العين، أو الأمراض الدماغية (بحيث تستحضرون من الخارج بعض الكتب الخاصة بهذا النوع الذي تميلون لأن تتميزوا به كما يفعل الأطباء الأوروبيون فيكسبون بها شهرة الانفراد والاختصاص... وهذا تميزهم جداً يساوي ألف سنة).

آخر قضاياه كانت القضية الكبرى التي حكم عليه بسببها بالإعدام، وقد ابتدأت القضية بتقرير بوليس أحمد صبري المؤرخ في ٢١/ شوال سنة ٣٠٩ هجرية.

ومما جاء في التقرير " وقد حققت بصورة خفية عن أحوال عبد الرحمن أفندي وفهمت أنه يجمع أولاد محلته عنده ويصرح بأقوال بحق الحكومة... علماً بأنني لم أعرف أسماء الأولاد الذين يجمعهم. وأن عبد الرحمن أفندي يقوم بإثارتهم ضد الحكومة".

كان والي حلب في تلك الأيام هو عارف باشا، وكان صديقاً لأبي هدى الصيادي وصنيعته. وهكذا بدأ الصدام منذ وصوله إلى حلب مبيتاً فيه الغدر.

تحدث نور ليلي عدنان في كتابها " الكواكبي مصلحاً وأديباً" عن الحادثة التالية وعن المحاكمات المتعلقة بها. وهي اكتشفت هذه المعلومات كلها منشورة في جريدة القاهرة الصادرة في ١٦/ نيسان وما بعده سنة ١٩٠٣م/. وقد كتبها عبد المسيح الانطاكي الذي يقول: " فأرسل " أي عارف باشا" فجأة رجال البوليس يهاجمون منزل الكواكبي استناداً إلى تقرير سري رفع ضده ، وقالوا إنهم وجدوا بين أوراقه ورقة صغيرة تفيد أنه يخاطر الدولة الإنكليزية ليسلمها البلاد. وبعد القبض عليه وإيداعه في السجن كان يعلم ما يبيته عارف باشا من نية الغدر به. فأخذ يكتب الاستعطافات إلى الأستانة طالباً عرض القضية في ولاية أخرى غير حلب ، لما بينه وبين واليها من حرب ويروي الانطاكي صورة لمهزلة المحاكمة في حلب حيث عرض على دائرة الاستتطاق، فوجهت إليه التهمة ورفض أن يدفعها عن نفسه وإنما طلب المحاكمة في ولاية أخرى. وفي المحكمة الابتدائية قدم للمحاكمة في هيئة المجرمين ورفض الدفاع عن نفسه أيضاً مكرراً طلبه المحاكمة في ولاية أخرى. وأصدرت المحكمة الابتدائية حكم الإعدام.

بعد ذلك وافقت الأستانة على نقل القضية إلى ولاية أخرى. واستقرت أخيراً في بيروت بعد أن رفض الكواكبي محاكمته في بعض الولايات التي قررتها الحكومة لعلاقة ولاتها بالصيادي.

*** اسمحوا لي أن أقف قليلاً هنا لتحدثنا عن هذه القضية عمناً عفيفة رحمها الله. قالت: " طرق الباب صباح أحد الأيام صديق لجدك من بيت الشربتجي وقال بلهفة أعطوني شرشفاً وأفسحوا لي الطريق. أعطيناه الغطاء فدخل إلى غرفة والدي وجمع ما فيها من أوراق وكتابات وحملها على ظهره وخرج مسرعاً وهو يقول لنا: لقد ألقوا القبض على أبيكم. وبعد قليل جاءت الشرطة وفتشت البيت تفتيشاً دقيقاً ومزعجاً ووجهوا إلينا التهديدات".

وهكذا نرى أنه لولا الشربتجي هذا لما وصلت إلينا كتب الكواكبي وكانت ستكون مسودات كتبه هذه سبب إعدامه نهائياً وحتماً.

وتضيف عمناً أن الشربتجي هذا جاء بصواني الحلويات وقدمها في الشارع للناس الذين تجمهروا للترحيب بأبيها وقت عودته بريئاً من بيروت. وقد جاء للترحيب به أبو الهدى الصيادي

وكنت واقفة إلى جانبه، فعانقه وقال له الحمد لله على السلامة يا ابن العم فأجابته والدي وعليك السلام
ولسنا بأبناء عم.

يتحدث الأنطاكي في العدد الخامس من جريدة القاهرة الصادرة/١٩٠٣م/. ثم نقل الكواكبي من
سجن حلب إلى بيروت بعد أن قبل طلبه بالمحاكمة هناك. ورفض تعيين محام وإنما دافع عن نفسه
باللغة التركية فكان مما قاله في هذه المرافعة ما ترجمته: "... وما قضيتي اليوم إلا مظلمة كبرى أراد
بها الظالمون أن ينتقموا مني باسم القانون فإنكم قرأتم ياقضاة العدل في الساعة الأولى الأوراق التي
أرسلت من عدلية حلب وبموجبها حكمت المحكمة الاستئنافية عليّ بالإعدام. وأنا كمظلوم بينه وبين
الموت كلمة من فم القضاة الذين أنا ماثل أمامهم، لا يسعني إلا أن أفصح عن كل شيء وأقول كل
شيء كاعتراف أمام الله وأمامكم بما ظهر واستتر من هذه القضية السوداء".

" إن البلاء قد اكتنفني من قبل الآن وكان مصدره أبو أفندي الذي اغتصب نقابة أشرف
حلب من عائلتي، ولأني أطالبه بحقوقتي ولم أسكت عنها، متظاهراً أكثر من مرة في مقاومتي
ومعارضته أعمالي وأشغالي إلى أن أعياء الأمر فرماني بهذه التهلكة بواسطة عارف باشا الذي هو
من جملة صنائعه.

ولما لم يجد عليّ علة لأنني قضيت زهرة العمر في خدمة دولتي وأمتي وسلطاني افتري عليّ
افتراء بهذه الورقة الصغيرة التي قالوا إنهم وجدوها بين أوراق أولادي وكلها كما ترون أوراق مكتبية
لتعليم الأولاد الكتابة... ثم يقول: " فلو سلمنا بوجود ورقة كهذه فإني كنت بلا شك أخفيها مع ما أخفيه
من الأوراق غيرها فضلاً عن أن ورقة كهذه سياسية نتيجتها الحكم بالإعدام يستحيل أن أتخافل عنها
لتكون مع أولادي". وبعد مرافعة طويلة يطلب إجراء المطابقة بين خط هذه الورقة وخطه الحقيقي.

ويضيف الأنطاكي: أدت مرافعة الكواكبي إلى إقناع المحكمة، فأجلت القضية حتى إحضار
الشهود وفحص الخط في الورقة التي دسوها للكواكبي. وقد حاول عارف باشا أن يفوت على
الكواكبي الفرصة، فشرح جنود البوليس الذين كانوا مطلوبين للشهادة حتى لا يصلهم أخطار محكمة
بيروت. فلما بلغ الكواكبي ذلك من أصدقائه طلب إليهم أن يغروا الجنود بالمال ويتحملوا نفقات
سفرهم حتى يصلوا إلى بيروت.

وبعد أربعة أشهر عقدت المحكمة جلسة لسماع الشهود الذين اعترفوا بانهم لم يجدوا أي ورق
سياسي عند التفتيش. وفي نفس الوقت جاء تقرير لجنة المعاينة بعدم وجود ما يخالف قوانين الدولة
في أوراق الكواكبي وأن الورقة التي زعموا أنها بخطه هي تقليد ولكن ليست بخطه حقيقة. وهكذا تم
الحكم ببراءة الكواكبي وأفرج عنه بعد أن قضى ثمانية أشهر في سجن بيروت.

وهنا قررت الحكومة عزل الوالي عارف باشا في نفس اليوم الذي وصل فيه الكواكبي إلى
حلب.

وفي حادثة "زيزون المرعشي" وهو محام أرمني أطلق الرصاص على جميل باشا وأخطأه. وجه الوالي الاتهام إلى الكواكبي كمحرض لزيزون وسجنه. وبقي في السجن حتى تم عزل جميل باشا ونقله إلى الحجاز.

الصحافة:

من مظاهر نضال الكواكبي عمله كصحفي. فبعد أن عمل محرراً في جريدة ((فرات)) الرسمية أراد أن يصدر جريدة خاصة به، وهي أول جريدة تصدر في حلب وأسماءها "الشهباء" كان عمره عندما أصدرها ٢٣/ سنة أي في سن المراهقة وهو يتحدث عن إصدارها فيقول للانطاكي الذي نشر ذلك في العدد الأول من جريدة القاهرة "علمت أن الحكومة تخاف من القلم خوفها من النار. ولا تعطي امتيازاً بجريدة لمن تعتقد أنه على بينة من أمره ووتيرة من عمله". فاتفقت مع الحاج هاشم الخراط لبساطته وسذاجته على أن يطلب هو الامتياز، وأستلم أنا التحرير والتحرير، وما مضى زمن على طلب الرجل المشار إليه إلا وصدرت الإرادة السنية بالسماح له بإنشاء الجريدة مما لا يمكن أن أحصل عليه أنا ولو أنفقت كل ما أملك.

الجريدة الثانية هي اعتدال أصدرها عام/١٨٧٩م/ استصدر امتيازها باسم سعيد بن علي شريف وذلك لأن اسم الكواكبي كان كافياً لرفض أي امتياز بصحيفة يطلب إصدارها. ولم تكن أسعد حظاً فعملها جميل باشا لأنها سارت على نفس النهج في التنديد بفساد الحكام والكشف عن المظالم وانتقاد الأوضاع الاجتماعية.

كتب الكواكبي في العدد الأول من اعتدال يقول: "إن موضوع الجرائد هو مطلق خدمة الإنسانية من حيث تهذيب الأخلاق وتأليف الأفكار ورذل النقائص واحترام الكمالات والمحافظة على العدالة، والمحاماة عن الحقوق إلى غير ذلك من الوظائف العمومية الجليلة التي تجعل الإنسان أن يعتبر الجرائد بمقام خادم عمومي ساع بالخير". فهو إذاً يتحلى بخبرة صحفية نادر مثاليها. تقول نور ليلى عدنان: "ولم يكن الكواكبي في كل الصحف التي شارك فيها أو اضطلع بمهمة تحريرها صحفياً محترفاً، بل كان سوطاً يلهب الاستبداد ويقلق مضاجع الولاة ويكشف النقاب عن المظالم ويثير الشعب ويفتح عيونه على الحقائق التي أخفاها محررون مأجورون بمقالات المدح والإطراء والنفاق".

وخلال عمله في الصحافة سجن أكثر من مرة بحكم المهنة، وقد نشر في الجرائد التي كانت تصدر خارج الدولة مقالات ينتقد فيها الولاة والدوائر والموظفين.

أرسل مقالاً إلى جريدة "النحلة" التي كانت تصدر في لندن باللغتين العربية والإنكليزية وجاء في المقال إشارة طريفة إلى أنه كان في حلب مجلسان للبلدية مما لم نكن نعرفه قبل الآن.

وفي العدد نفسه من الجريدة مقال ثان تقول فيه الجريدة: "وردت إلينا هذه الرسالة من مكاتبنا غير الاعتيادي بحلب ننشرها بحروفها".

وبعد أن يتحدث الكاتب عن فساد الأحوال في حلب أيام واليها كامل باشا الذي انغمس في الفساد يقول الكواكبي فيها: يمكن حصر هذا الفساد في أمرين أحدهما الرشوة والثاني الاستبداد ونتكلم عن كل منهما على حدة:

أما الرشوة فداؤها الدفين وعلتها العاضلة وذلك لشيوعها وتعميمها في سائر الدوائر والأرجاء على الإطلاق حتى في الأجانب الموجودين فيها. فإنه كلما توجد قونصلية تخلو منها. وبعد أسطر يتابع حديثه بقوله: "أما الاستبداد فهو جرثومة الفساد الذي لا خلاص منه ولا مناص لتمكنه تمكناً طبيعياً خاصاً في هذه البلدة وذلك من جهة خلود الأهالي للخمول وتعودهم أن لا يطالبوا بحق.. وكامل باشا المشار إليه هو الذي عطل اعتدال".

ويشير جان في كتابه "صحافة الكواكبي" إلى أن ثمة أدلة كثيرة على أن كاتب المقال هو الكواكبي، لأنه يكاد يكون شكلاً ومضموناً نسخة طبق الأصل عن افتتاحية الكواكبي في العدد الخامس من "الشهباء" حيث يتكلم فيها عن الهيئة الاجتماعية في حلب.

هذا هو الكواكبي الصحافي الذي أثار بهذه الصفة ضجة في تلك الأيام دعت مختلف الأوساط الثقافية والسياسية إلى الاهتمام بما أصدر وكتب وما زال الاهتمام به بهذه الصفة مستمراً حتى اليوم.

منذ سنوات قليلة قدم أحد المستعربين الألمان رسالة للماجستير عن جريدته في جامعة برلين، وكان لهذا المستعرب الفضل في اكتشاف أعداد الشهباء والاعتدال في مكتبة جامعة (هالي) في ألمانيا.

وفي القاهرة قدمت الصحيفة العراقية نور يعقوب نجار رسالة للماجستير في عام/١٩٧٥/ عنوانها "الكواكبي صحفياً". وفي عام/١٩٨٤م/ أصدر جان داية كتاباً هو "صحافة الكواكبي" وكتب عنه كل من أرخ للصحافة العربية بدءاً بفيليب دو طرازي.

الكواكبي الكاتب

أما الكواكبي الكاتب فتعرف من آثاره أم القرى وطبائع الاستبداد، وهناك بحث رائع عن "تجارة الرقيق وأحكامه في الإسلام" اكتشفه الشيخ رشيد رضا ونشره في المنار عام/١٩٠٥م/. هذان الكتابان كانا موضع دراسة عشرات المؤلفين الذين أصدروا عنهما الكتب الكثيرة. منهم من يرى أم القرى أهم كتاباته، ومنهم من يرى طبائع الاستبداد هو الأهم. عباس محمود العقاد في كتابه عن الكواكبي يقول "طبائع الاستبداد هو آية الكواكبي" والدكتور علي الدين هلال يقول "عبد الرحمن الكواكبي أعظم من هاجم الاستبداد"، وعنه يقول الدكتور أبو حقة "هو كتاب الحرية والثورة والإصلاح والتحرر".

أم القرى رواية خيالية لجمعية متعددة الجنسيات عقدت مؤتمراً في مكة بحثت فيه أسباب تخلف المسلمين والعرب ووسائل نهضتهم والمقترحات المتعلقة بمستقبلهم وعنها يقول الدكتور أحمد أبو حاقّة "نادى بالتححرر السياسي والاجتماعي والاقتصادي والديني والفكري والتربوي والإنساني بصورة عامة ونادى بالاصلاح على كل صعيد".

وفي هذا الكتاب نادى بتولى العرب زعامة العالم الإسلامي وفي هذا يقول الكاتب السوفيّاتي: (لفين) (لقد كان الكواكبي سلفاً لإيديولوجي النزعة القومية العربية).

"أم القرى" ترجم إلى اللغة الألمانية وطبائع الاستبداد ترجم إلى الروسية. والكتابان في الواقع أبحاثهما مكثفة جداً بصورة تجعلني أن أقول أنهما يصلحان لأن يكونا مناهج لأبحاث وكتابات مطولة جداً. وقد بدأ هو نفسه بذلك في كتابات أخرى تتعلق بهذه الأبحاث. لكن المنية أدركته سريعاً مع الأسف.

أم القرى مكتوب بريشة رسام بارع رسم بها العالم الإسلامي بتأخره الحاضر ومستقبله المأمول.

وطبائع الاستبداد" لوحة رائعة من ينظر إليها يرى الشعوب المستعبدة ويرى بين دفتيه صوراً صادقة للسادة المستبدين. ويقول عنه (لوتسكي) الروسي (كانت نشاطات هذا المفكر الممتاز بلا ريب ذات مدلول تقدمي. وكانت بمثابة إعداد إيديولوجي للنهضة الوطنية وأحد العوامل التي سببت نهوض الحركة الوطنية التحررية في الأقطار العربية).

من جملة من نادى بتحريرهم مثلاً النساء. فقد كان من أوائل الكتاب العرب الذين نادوا بتحرير المرأة وتعليمها. ففي أم القرى يرد على أولئك الذين يزعمون أن جهل النساء أحفظ لعفتهم فضلاً عن أنه لا يقوم لهم برهان على ما يتوهمون، حتى يصح الحكم بأن العلم يدعو للفجور وأن الجهل يدعو للعفة.

نعم ربما كانت عالمة أقدر على الفجور من الجاهلة، ولكن الجاهلة أجسر عليه من العالمة" أم القرى ١٣١. ولمن يريد الاستزادة حول زاد الكواكبي الفكري أنصح له بالرجوع إلى كتاب محمد جمال طحّان" الاستبداد وبدائله في فكر الكواكبي" الذي أصدره عام/ ١٩٩٢م/ عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق، وكذلك دراسة المؤلف نفسه لأعمال الكواكبي وتحقيقها الذي حظيت بشرف تقديمه وصدر عن مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت عام/ ١٩٩٥م/ ومن خلال هذه الأعمال نجد أن الكواكبي قد لاقى الاضطهاد في حياته ولحقه بعد مماته. كتاباه منعا من التداول في المملكة العثمانية. ففي/ ١٩٠٥م/ مثلاً ألقى القبض في بيروت على كتيبين شوهدت في مكتبتهما نسخة من "أم القرى" وهما الخواجات كما جاء في جريدة المقطم" نخلة قلفاط" و"سليم ميداني" صاحباً المكتبة الكلية. حكم عليهما بالسجن ثلاث سنوات مع الأشغال الشاقة وفيه توفي أولهما نخلة.

في اليمن كما قال لي الدكتور عبد الكريم الارياني وزير خارجيتها أنه صدر مرسوم أيام الإمام بمنع دخول كتب الكواكبي وذكر لي أن طبائع الاستبداد كان من أسباب قيام الثورة اليمنية عام/ ١٩٦٢م/. وأن جميع المتقنين كانوا يتداولونه سراً.

وقال لي أحد شيوخ الثقافة في اليمن لقد كنا ننزع غلاف طبائع الاستبداد ونضع عليه غللاً كتب عليه "كتاب في علوم الدين" وقال لي الكاتب الجزائري الكبير مالك بن نبي رحمه الله عندما اجتمعت به "كنا في جامعة الجزائر، بعد أن ينام المراقبون الليليون، نشعل الشموع لنقرأ على ضوءها أم القرى" فقد كان ممنوعاً في الجزائر أيام الاستعمار.

كتابات الكواكبي الأخرى:

سألنا كثيراً عما إذا كان له مؤلفات وكتب غير كتابيه هذين ؟ أقول نعم له كتب أخرى. وأرى أنها أهم من كتابيه المعروفين.

أولهما تحدث عنه هو في مقدمة أم القرى ودعا إلى اقتنائه عند صدوره وهو (صحائف قریش) وقال عنه " انه سيكون له شأن إن شاء الله في النهضة الإسلامية العلمية والأخلاقية".

الكتاب الثاني قال عنه محمد كرد علي أنه رآه مخطوطاً في مصر وهو "العظمة لله" وقول رشيد رضا في المجلد الثامن من المنار أن للمرحوم الكواكبي كتاباً سماه " ماذا أصابنا؟ وكيف السلامة" وفيه فوائد كثيرة سياسية واجتماعية.

وذكر عبد المسيح الأنطاكي في جريدة القاهرة عام ١٩٠٣ م أي بعد وفاة الكواكبي بأشهر انه لديه كتابان له سينشرهما وهما "أمراض المسلمين والأدوية الشافية لها" وكتاب " احسن ماكان في أسباب العمران". يضاف إلى ذلك مذكراته وكتاباتة خلال رحلاته المشهورة في إفريقيا وآسيا. ماذا حصل لكل هذا؟.

صبيحة وفاته قتيلاً بالسسم جاء بيته في القاهرة رجال الأمن المصريون وصادروا أوراقه ومخطوطاته واستطاع عمنا كاظم يومئذ، وكان معه، أن يخفي نسخة منقحة من طبائع الاستبداد فيها زيادات تعادل الكتاب الأصلي. هذه النسخة وصلت إلي فطبعتها عام ١٩٧٣ م. وقمت بتسليم المخطوط وبعض الرسائل العائلية التي تحدثت عن بعضها إلى مديرية الوثائق التاريخية التابعة لوزارة الثقافة في دمشق فنظموها في مغلف وكتبوا عليه " عبد الرحمن الكيالي".

كما جاء بعد وفاته عبد القادر القباني صاحب جريدة ثمرات الفنون في بيروت إلى القاهرة واخذ من عمنا كاظم مؤلفات خطية على أمل طبعها من قبله.... لكنه أخذها إلى استنبول.

الشيء الهام الآخر: اكتشف الإندونيسية نور ليلي عدنان عام ١٩٧٠م. وهي تحضر رسالتها للمجستير عن الكواكبي في جامعة القاهرة أعداداً من جريدة "القاهرة" لبشير اليوسف تصل حتى العدد العشرين وذلك في مكتبة قلعة المقطم في القاهرة.

وفي أعداد الجريدة التي صدرت في عام ١٩٠٣ وجدت سلسلة مقالات لصديق حميم للكواكبي رافقه في حلب ومصر وقد جاء في هذه المقالات أحاديث عن الكواكبي وحياته وأحاديث معه تتعلق بمحاكمته في بيروت وأحاديث سياسية أخرى لم تنشرها نور مع الأسف يقتضي علينا الذهاب إلى القاهرة وإعادة التفتيش عنها ثانية.

المهم في الموضوع أن الأنطاكي قال في العدد العشرين من جريدة القاهرة "سنبداً غداً بنشر كتابات الكواكبي" وهذا الغد لم يأت أبداً، إذ توقفت الجريدة عن الصدور ولم ينشر الأنطاكي ولم يطبع أي كتاب وباتت كتابات الكواكبي في عالم الغيب.

في مكتبة نيويورك عثرت على نسخة من طبائع الاستبداد منشورة ذيلاً لكتاب "دليل مصر والسودان" لصاحبيه: "ثابت وانطاكي" لسنة ١٩٠٥ افرنكية.

وفيه أبحاث تاريخية وجغرافية عن البلدين واسماء الموظفين والأعيان وتراجم لهم ومن جملة من تحدث عنه الكتاب "عبد المسيح الأنطاكي" وفيه صورة له. وقد جاء في ترجمته "إنه صاحب جريدة العمران وواضع روايات تاريخ النصرانية الأكبر بسلسلة حلقات" ونذكر أن الكواكبي كان قد كتب بعض مقالاته في القاهرة في جريدة العمران.

قلبت صفحات الدليل إلى إن وصلت إلى طبائع الاستبداد وقد كتب تحت العنوان "مصححة ومزاداً عليها زيادات ذات شأن بيد مؤلفها السيد عبد الرحمن الكواكبي رحمه الله".

وفي الصفحات التالية تاريخ حياة الكواكبي ومما جاء فيها: "وكان في أثناء وجوده في مصر ينشر مقالات هائلة في المؤيد تارة بأمضائه وأخرى بأمضاء مشهور تحت اسم مستعار.... إلى أن يقول "ولدينا نحن بعض ما ترك من نفثات أقلامه مما لم يطبع بعد. وربما نشرنا قسماً منها في دليل السنة القادمة إن شاء الله تعالى". ثم يتحدث عن وفاته الفجائية.

هنا تأكدت أن عبد المسيح الانطاكي صديقه الحميم ، هو الذي يقتني كتابات الكواكبي غير أم القرى وطبائع الاستبداد. وفي السنة التالية لم يصدر دليل مصر والسودان، ولم يظهر شيء مما وعد به الانطاكي. ثم ترك الانطاكي مصر بعد ذلك مهاجراً في البلاد العربية إلى أن توفي وضاعت كتابات الكواكبي . واعتقد إن للسلطات المختصة اليد الطولى في توقيف جريدة القاهرة. وفي منع ظهور كتابات الكواكبي التي وعد الانطاكي بنشرها. هذا آخر ما اكتشفته في هذا الموضوع ومازال الناس حتى اليوم يسألون عن كتابات الكواكبي المفقودة.

ماذا يريد الكواكبي؟؟؟

يريد أشياء كثيرة اعدد بعضها فيما يلي:

يريد من الإنسان أن يصدق في عبادة ربه وأن يتمسك بدينه وأن يحافظ على سلوكه الأخلاقي، وأن يكون حيث يكون الحق، وأن يعيش ويموت كريماً. حراً مستقلاً، لا يتكل على غير نفسه وعقله، وأن يكون إنسان الجد والاستقبال لا إنسان الماضي والحكايات. وأن يؤمن أن الحياة كلها تعب لذيد وأن الوقت غال عزيز وأن الشرف في العلم فقط. وأن يخاف الله لاسواه، وأن يعيش متحلياً " بضمير حي" يفرضه عليه مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ويريده مالكا لنفسه تماماً ومملوكاً لقومه تماماً ويريده أن يرى أن فضل الإنسان ينحصر في المحراث ثم المطرقة ثم القلم. ويريد لأمتة نهضة كاملة تتخلص فيها من الملكية المطلقة ومن الاستبداد والظلم، والجهل والتخاذل. ويضع لها أسس الحرية التي وصفها بأنها شجرة الخلد وسقايها قطرات من الدم الأحمر المسفوح ويعرفها بقوله: " أن يكون الإنسان مختاراً في قوله وفعله لا يعترضه مانع ظالم" ومن فروع هذه الحرية: " تساوي الحقوق، محاسبة الحكام، عدم الرهبة في المطالبة، حرية التعليم، حرية الخطابة والمطبوعات، حرية المباحثات العلمية. العدالة، الأمن على الدين والأرواح، والشرف والأعراض، والعلم واستثماره". فهو يريد الثورة على الاستبداد ثورة مدروسة لا فتنة تأكل الأخضر واليابس. يريد لها ثورة تعتمد على نشر العلم وتوعية العامة والتخلص من البؤس والفقر، وتحقيق التساوي بالحقوق والواجبات حيث يتم بعدها إصلاح المجتمع والدولة بتعميم الديمقراطية وتطبيق الاشتراكية وتحقيق المساواة في كل شيء، والفصل بين الدين والدولة مشيراً إلى أن هذه القواعد تفرضها " الإسلامية " أي الحضارة التي وضع أسسها الدين الإسلامي .. من الناحية الدينية يرى الكواكبي أن الإسلام هو ما جاء في القرآن الكريم وما يتفق معه ومع العقل من السنة الصحيحة. وبعد ذلك كله متروك للاجتهاد والدراسة. فهو يرفض البدع والإضافات وما طرأ على الدين من طوارئ تغيير غيرت نظامه . ويرفض التشدد في الدين ويرفض التصوف وطرقه، ويريد العودة إلى الدين السبع البسيط، الذي يفهمه الناس بالبديهية من غير حاجة إلى وسطاء، ويسمح للناس باتباع المذهب الذي يريدونه دون التقيد بأحكامه تماماً والتعصب له بل يمكن للمسلم أن يتوضأ مثلاً أخذاً الأسهل من كل مذهب . من الناحية السياسية نرى أن الكواكبي لم يكن يرغب بتشتيت الدولة، بل ببقائها في ظل نظام لامركزي، على أن يحكمها العرب الذين قاسوا من ظلمها خلال أربعة قرون. وأن يتولى العرب الخلافة القرشية على أن تكون رمزية وانتخابية وموقته ولا علاقة لها بالسياسة وذلك لان للعرب مميزات عددها في أم القرى تسمح لهم بالزعامة في الدولة الموحدة.

هذا هو بعض ما يمكن التحدث به عن الكواكبي. وقد توفي مسموماً في ١٤ حزيران ١٩٠٢ ودفن في القاهرة ونقش على قبره لحافظ إبراهيم :

هنا رجل الدنيا هنا مهبط النقي هنا خير مظلوم هنا خير كاتب
قفوا واقرؤوا أم الكتاب وسلموا عليه فهذا القبر قبر الكواكبي

□□□